

صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والهدايا

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

—>>>>>><<<<<<—

درج الناس في العصر العباسي على تقديم الهدايا للخلفاء ، ونلاحظ أن هذه الهدايا كانت تقدم في النيروز والمهرجان ، وفي القصد ، وفي المودة من الحج ، هذا عدا الهدايا التي كانت تحملها الرسل الواردة على الخليفة من الولاة والأمراء ، أو من ملوك الروم أما الهدايا في النيروز والمهرجان ، فعادة فارسية أخذها العرب عن الفرس منذ فجر العصر الإسلامي . ويقول الجاحظ إنها كانت معروفة زمن معاوية ، وظلت كذلك طول عهد الأمويين ، حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأبطلها . فلما دالت دولة الأمويين ، وقامت دولة العباسيين ، عادت هذه العادة إلى الناس ، وصارت فرساً عليهم نحو الملوك

وبين الجاحظ العلة في تقديم الهدايا في النيروز والمهرجان فيقول : « وإن من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ، والمنة

وسرى المتبع لتاريخ جعجا وما نسب إليه من أخبار كيف سلك المتحدثون عنه مثل هذا النهج ، أو قريب :

فثلوا لنا جعجا في صورة فيلسوف ، وجعجا في صورة أبله ، وجعجا في صورة قاض ، وجعجا في صورة متقاض ، وجعجا في صورة سارق ، وجعجا في صورة مسروق ، وجعجا في صورة ذكي وجعجا في صورة غبي ، وجعجا في صورة فقير ، وجعجا في صورة غني ، وهكذا .

وقد أصبحت كلمة « جعجا » كافية في التعبير عن هذا كله — كما ترون — فلا غرو إذا اجتزأنا بها في الحديث اقتصاداً للوقت ، واختصاراً للبحث في التفاصيل المسهية ، والشروح المستفيضة التي عرضنا لها في غير هذا المقام .

طاهر كيونى

في ذلك أنهما فصلا السنة ، فال مهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز إيذان بدخول فصل الحر »

« ومن حق الملك أن تهدي إليه الخاصة والعامة ، والسنة في ذلك عندهم أن يهدي الرجل ما يحب من ملكه إذا كان في الطبقة العالية ، فإن كان يحب السك أهدى مسكلاً غيره ، وإن كان يحب العنبر أهدى عنبراً ، وإن كان صاحب بزة ولبسة أهدى كسوة وثياباً ، وإن كان من الشجمان والفرسان ، فالسنة أن يهدي ذهباً أو فضة ، وإن كان من عمال الملك ، وكانت عليه متأخرات أو بقايا للسنة الماضية جمعها وجعلها في بدر حرير صيني وشريجات فضة وخيوط أبريسم ... ثم وجهها . وكان يهدي الشاعر الشعر ، والخطيب الخطبة ، والتنديم التحفة والطرفة والبا كورة من الخضروات . وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثرنه . ويجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسريها ، أن تهديها إليه بأكل حالاتها ، وأنضل زينتها ، وأحسن هيأتها . فإذا فعلت ذلك ، فن حقها على الملك أن يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها في الكرامة (١) » .

وعاد الجاحظ في المحاسن والأضداد ففصل ما أجل . قال : وجعلوا شعارهم : كل يهدي على قدره . فكان القواد يهدون النشاب والأعمدة المصمتة من الذهب والفضة . والكتاب والوزراء والخاصة من قراباتهم جامات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر ، وجامات الفضة الملوحة بالذهب . والمظاء والأشراف يهدون البزاة والعقبان والصقور والشواهي والفهود . وربما أهدى الرجل الشريف سوطاً . وكانت الحكماء يهدون الحكمة والشعراء الشعر ، وأصحاب الجوهر الجوهر ، وأصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهري النادر . والطراف قرب الحرير الصيني مملوءة ماء ورد . والمقاتلة القسي والرماح والشباب . وكانت نسوة الملك تهدي إحداهن الجارية الناهدة والوصيفة الرائعة ، والأخرى الدرة النفيسة والجوهرة الثمينة ، وفص خاتم ، ومالطف وخف . وأصحاب البز الثوب المرتفع من الخز والديباج وغير ذلك

والصيافة نقر الذهب مملوءة بالفضة ، وجامات الفضة مملوءة دنائير^(١) .

وكان للهدايا كاتب خاص ، يكتب اسم كل مهد ، وجائزة كل من يجيز الملك على هديته ليودع ديوان النيروز^(٢) . مهما كان شأن الهدية ، صغرت أم كبرت ، كثرت أم قلت . فإذا أهدى أحدهم الملك هدية ، ثم لم يخرج له من الملك صلة ، عند نائية تنويه ، أو حق يلزمه ، فعليه أن يأتي ديوان الملك ويذكر بنفسه^(٣) .

ويذهب آدم متر إلى أن المهرجان كان بمثابة خاصة بأن الرعية يهدون فيه إلى السلطان^(٤) ، ولا وجه لتمييز المهرجان من النيروز وقد رأيت أن الجاحظ جعلهما سواء ، وذكر هدايا المهرجان ، وهدايا النيروز^(٥) . وقد كان النيروز عيداً قومياً ، يحتفلون به حفلهم بعيد الفطر ، ويتبارون فيه بالقصائد والهدايا^(٦) .

ولنا الآن أنموذجات من هذه الهدايا ، في ضروبها وأصنافها . فقد أهدى المنصور الوسائف من الرجال . حدث الفضل بن الربيع عن أبيه قال : كنت في خمسين وصيفاً أهدوا للمنصور ، ففرقنا في خدمته^(٧) .

وأهدت جارية إلى المهدي تفاحة ، فأعجب بهذه الهدية وقال : تفاحة من عند تفاحة جاءت فإذا صنعت بالفؤاد والله ما أدري أبصرتها بقطان أم أبصرتها في الرقاد^(٨) ؟ ولما عشق أبو المتاهية عتبه ، جعل هديته إلى المهدي وسيلة لوصالها . فقد ذكر البرد أن أبا المتاهية استأذن في أن يطلق له أن يهدي إلى أمير المؤمنين في النيروز والمهرجان . فأهدى له في أحدهما برنية ضخمة فيها ثوب ناعم وطيب ، قد كتب على حواشيه :

نفسى بشيء من الدنيا معلقة الله ، والقائم المهدي يكفيها إلى لأياس منها ثم يطعمني فيها احتقارك للدنيا وما فيها^(٩)

وحدث إبراهيم بن المهدي قال : كنت عند الرشيد ، فأهديت له أطباق ومعهما رقعة . فلما قرأها استفزه الطرب . فقلت : يا أمير المؤمنين ما الذي أطربك ؟ قال : هذه هدية عبد الملك بن صالح . ثم نبذ إلى الرقعة فإذا فيها : « دخلت يا أمير المؤمنين بستاناً أفادني كرمك ، وعمرته بنعمتك ، وقد أينعت ثماره وفاكهته . فأخذت من كل شيء وصبرته في أطباق القضبان ، ووجهته لأمير المؤمنين ليصل إلى من بركة دعائه ، مثل ما وصل إلى من بركة عطائه^(١٠) » . قلت وما في هذا ما يقتضى هذا السرور . قال ألا ترى إلى طرفه كيف قال القضبان ، فكفى به عن الخيزران إذ كان يجري به اسم أمنا .

ثم كشفت المندبل فإذا بعضها فوق بعض ، في أحدها فستق وفي الآخر بندق إلى غير ذلك من الفاكهة^(١١) .

وأهدى أحمد بن يوسف للأُمون مرة ثوب وثني^(١٢) . وأهدى إليه مرة ثانية طبق جذع عليه ميل من ذهب فيه اسمه منقوش . وكتب إليه : « هذا يوم جرت فيه العادة ، بالطف المبيد السادة ، وقد أرسلت إلى أمير المؤمنين طبق جذع فيه ميل^(١٣) » .

وأهدى عبد الله بن طاهر له فرساً ، وكتب إليه : « قد بعثت إلى أمير المؤمنين بفرس يلحق الأرائب في الصعداء ، ويجاوز الطباء في الاستواء ، ويسبق في الحدود جري الماء^(١٤) » .

وهدية الخليل كانت معروفة من قبل . فقد أهدى الحجاج إلى عبد الملك فرساً^(١٥) ، وأهدى عمرو بن الصاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سوابق خيل مصر^(١٦) .

ولما أفضت الخلافة إلى المتوكل أهدى إليه الناس على أقدارهم

(١) المحاسن والأضداد ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٧٩ .

(٣) التاج ج ١ ص ١٤٩ .

(٤) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٥) المحاسن والأضداد ج ١ ص ١٨١ .

(٦) ضنى الإسلام ج ١ ص ١٠٢ .

(٧) الألفاني ج ٦ ص ٨٢ .

(٨) عيون الأخبار ج ٣ ص ٣٩ .

(٩) وفیات الأعيان ج ١ ص ١٢٦ .

(١٠) مطالع البور ج ٢ ص ١٢٦ .

(١١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٠ .

(١٢) وفیات ج ٢ ص ٣٠٥ .

(١٣) زهر الآداب ج ٢ ص ١٠٠ .

(١٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٠ .

(١٥) المصدر السابق ج ١ ص ١٩ .

(١٦) المصدر السابق ج ١ ص ٢١ .